بين الذكرى والأمل

الأخ أبو حفص

قرأت في طفولتي تاريخ أمتي وكنت متحمساً لذلك التاريخ بما فيه من بذل وتضحية ، من نضال وفداء .. فتلك بدر الكبرى أول معركة فاصلة في تاريخ الإسلام ، ينصر الله المؤمنين على قلة وضعف بهم على المشركين مع كثرتهم وقوتهم ، ويتكرر المشهد في غزوة الأحزاب وفتح مكة وحنين وجلّ غزوات الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام .. ولا تسأل عن السحر الذي فعلته الفتوحات الإسلامية في عهد الخلافة في نفس الطفل الصغير وبقي يحلم بمثلها ولا سيما أنه ولد في القدس وعاش شطراً من حياته بها قبل نزوحه بعد الاحتلال . نعم لقد كان يحلم في أن يكون جندياً ويعيد أمثال تلك الفتوح .. ويكون الفارق أنه يحرر بلاداً إسلامية بدل أن يفتح بلاداً لينقل إليها الإسلام .. إنها شطر فلسطين ، إنها حيفا التي هاجر منها أبوه ، إنها يافا وعكا ، إنها اللد والرملة ، إنها كل ذرّة من فلسطين الحبيبة . أجل إنه سيكون واحداً ممن يخوضون غمار تلك الحرب حرب التحرير .. وينام ليلته ليقوم ويرى إخوته ووالده يساقون أمام رشاشات العدو الصهيوني المتسلطة على رقابهم .. إلى أين ؟ لا يدري ، وتخور قواه ، ويسقط في الفراش ثانية ، وتلقاه أمه سائلة عمّا دهاه ، فيقول لها : إخوتي وأبي ، فتقول : ألست الذي لم تفتر لك عزيمة أيام القتال جميعها ، وعندما كنت أريد منعك من الخروج إلى الشوارع قائلة إنها ليست لعب أطفال تقول : بل هي لعب الرجال ؟ .. قم . ويأبى الطفل إلاّ أن يلازم الفراش .

ويعود الأب والإخوة بعد منتصف الليل بعد أن أطلق سراحهم . ولم يبق أمام العائلة إلاّ الرحيل ومغادرة المدينة الحبيبة . لقد قالها أحد إخوته إلى أحد الصحفيين قبيل الرحيل : إننا قد نضرب فنفقد الوعي ولكن لربع ساعة ، ثم ننهض ثانية لنواصل الطريق . وبقيت ترنّ في أذن الصبي ، ولها من الشاهد أُحد ومؤتة وحنين .. نعم إنها كبوة ، ولكن لا بد من صحوة ، وتكبر مدارك الصبي ، ويصبح في الإعدادية ، ويحب مدرس الاجتماعيات حباً جماً لأسلوبه الجميل وفكاهته الهادفة أثناء الدرس ، ويؤثر فيه تاريخ المسلمين في عهد الصليبيين والتتار أشد التأثير .. إنْ كان الصليبيون قد ذهبوا ، فهم أمامنا بوجه جديد ، وإن كان التتار قد انتهى أمرهم فنحن أمام مَنْ هم أشد وحشية .. ولا بد من علاج كما كان في المرتين الأوليين علاج . وتمرّ دروس الأندلس ، وتنتهي دروس فلسطين ، ويقف الصبي أمام سؤال محيّر يعرضه على المدرس : إنّ العرب دام حكمهم في الأندلس أكثر من سبعة قرون ولا يطالبون بها ، ولم يدم حكم اليهود لفلسطين سوى سبعين عاماً ويطالبون .. فلماذا ؟ .. ولم يُعِر المدرس السؤال اهتماماً ، والإسلام يجب عليه ، ويتولد شيء من الكراهية في نفس الصبي نحو هذا المدرس ، ولم يستطع أن يفسر هذه الحادثة إلاّ عند نضوجه وتقدمه في المعرفة قليلا . نعم لقد كان المدرس يعرض التاريخ على أنه تاريخ للعرب ، إنه لا يعير الإسلام

اهتماماً ، لذلك لا يستطيع أن يجيب على سؤال مثل هذا ، فهل يعتبر الأندلس عربية وهي لم تكن كذلك من قبل أم أنها إسلامية وقد انسلخت من الإسلام ؟ .. إنّ الأندلس والقوقاز ، إنّ الهند وبخارى ، إنّ كل بقعة من أرض الإسلام هي فلسطين ، وهي مكة .. لا بد أن تعود إليها راية الإسلام خفّاقة .. ولكن على يد من ؟

إننا ننظر إلى واقع المسلمين وقد تحولوا في مسرح الأحداث والتاريخ إلى مشاهدين يتأثرون بما يدور أمامهم ، ليس لهم في صناعته شيء ، وقد كانوا أبناء مدنيته من قبل ، وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، بل يتعدّى إلى ما هو أسوأ ، فاستقبال الناس لأعدائهم أمثال كارتر والمؤاخاة التي تمت بينه وبين الرئيس (المؤمن) ، ورفض الـــسنة لـــدى رئـــيس الجماهيرية ، وتنكر حكام العرب وقادتهم لتاريخهم ودينهم ومطاردة دعاة الإسلام في كل مكان .. يُعدّ نصراً وفتحاً مبينا .

ومع ذلك هناك بصيص أمل هو الشباب المؤمن ، أمثال الأرقم ومصعب ، إنه الأمل المعلق بالسجون كما كـــان معلقاً بالصحراء الملتهبة يُلقى عليها بلال والصخور الضخمة تُلقى على صدره .. إنه الأمل المعلق في أعواد المـــشانق ، كما كان معلقاً في خنجر تمتد به يدٌ آثمة إلى سمية أو الإسلام شهيد في الإسلام .. إنه الأمل المعلق بالتمسك بالعقيـــدة الراسخة والتضحية والعطاء كما كان معلقاً بذلك من قبل .

إنه مارد ضخم غفل غفلة فأحاطت به الأقزام وضُرِبَ ضربة فغاب عن وعيه ، ولكن هي ربع ساعة ، وبعـــدها يقوم ليجدّد بدراً ويعيد حطين ، ويحرز عين جالوت ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .